تأثير ابن أبي ربيعة
في شعراء اللغة العربية

عرف القارئ كيف أثَّر عمر بن أبي ربيعة في شعراء عصره، وكيف حملهم على الاعتراف بتفوقه عليهم في مذاهب النسيب. فمن الخير أن نعرف كيف أثر فيمن خلفه من الشعراء.

وإنما عيَّنا من خلف من بعده؛ لأنه غلب على شعراء عصره، فأضاف إليه الرواة أكثر القصائد التي وُسمت بميسمه، وطُبِعَت بطابعه، في حوار الملاح.

وكان طبيعيًّا أن نحاول معرفة من تأثر به ابن أبي ربيعة من القدماء، وإن كنا قد ألمعنا إلى ذلك في المحاضرة الثالثة، فلنذكر الآن أنه تأثر بامرئ القيس: فجاراه في الحديث عن حوادث الليل، ومدافعة الأحراس، ومطاوعة الصبا والحب في هصر أعواد الحسان وفي الحق أن أكثر ما مرَّ من شعر ابن أبي ربيعة يذكرنا في الغرض والأسلوب بقول امرئ القيس:

وبيضة خدرٍ لا يُرام خِباؤها ... تمتَّعت من لهو بها غير مُعجل[1]

تجاوزت أحراسًا إليها ومعشرًا ... عليَّ حِراصًا لو يُسرُّون مقتلي[2]

إذا ما الثريا في السماء تعرضت ... تعرُّض أثناء الوشاح المفصل[3]

---

(١) بيضة الخدر كناية عن العقيلة المخدرة المحجبة -غير معجل: غير مضطر إلى العجلة.

(٢) الأحراس والحراس معناهما واحد -حراص: جمع حريص -يسرون مقتله: يضمرونه.

(٣) الوشاح: أديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحها -والمفصل: هو المرصع بالذهب أو الزبرجد.

فجئت وقد نضَت لنوم ثيابها ... لدى السِّتر إلا لبسة المتفضل[١]

فقالت يمين الله مالك حيلةٌ ... وما إن أرى عنك الغواية تنجلي[٢]

خرجت بها أمشي تجرُّ وراءنا ... على أثرينا ذيل مِرطٍ مرحل[٣]

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحت ... بنا بطن خبت ذي حِقاف عقنقل[٤]

هصرت بفودَيْ رأسها فتمايلت ... عليَّ هضيم الكشح ريَّا المخلْخَل[٥]

مهفهفةٌ بيضا غير مفاضة ... ترائبها مصقولةٌ كالسجنجل[٦]

كبكر المقاناة البياض بصُفرةٍ ... غذاها نمير الماء غير المحلل[٧]

---

(١) نضت ثيابها: نزعتها -والمتفضل هو الذي يلبس ثوبًا واحدًا حين يأوى إلى فراشه.

(٢) مالك حيلة: هي كلمة نسائية يراد بها الدعابة لا التحقير.

(٣) المرط: كساء من صوف أو خز -المرحل: الذي فيه صور رحال، كالمشجر وهو الذي يحمل صور الأشجار.

(٤) جزت المكان وأجزته وجاوزته وتجاوزته: قطعته وخلفته -انتحت: قصدت -الخبت: الفضاء الواسع -الحقاف والأحقاف جمع حقف وهو نقا يعوج ويدق - العقنقل: الوادي العظيم والكثيب المتراكم.

(٥) هصرت فوديها وبفوديها: أملتها إلى -والفودان: جانبا الرأس -هضيم الكشح: دقيقة الخصر -ريا المخلخل: بضة الساق -والمخلخل: موضع الخلخال.

(٦) مهفهفة: ضامرة البطن -غير مفاضة: غير مسترخية اللحم، واسترخاء اللحم من عيوب النساء - الترائب موضع القلادة من الصدر -السجنجل: المرآة المجلوة.

(٧) المقاناة: الخلط. تقول: قوني بياضها بصفرة، أي خلط. والشاعر يشبه خليلته ببيضة النعام لأول عهدها بمزج الصفرة بالبياض -نمير الماء: صافيه -المحلل: الذي كدرته الإبل -وهذا البيت يذكرنا بابن أبي ربيعة إذ يصف معشوقاته كثيرًا بالترف ولين العيش.

تصدُّ وتبدي عن أسيل وتتقي ... بناظرة من وحش وجرة مطفل[١]

وجيدٍ كجيد الريم ليس بفاحشٍ ... إذا هي نصته ولا بمعطل[٢]

وفرع يزين المتنَ أسود فاحمٍ ... أثيث كقنو النخلة المتعثكل[٣]

غدائره مستشزرات إلى العُلى ... تضل المدَارَى في مثنى ومرسل[٤]

وكشح لطيف كالجديل مخصَّرٍ ... وساقٍ كأنبوب السقيِّ المذلل[٥]

وتُضحي فتيت المسك فوق فراشها ... نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل[٦]

وتعطو برخص غير شثن كأنه ... أساريع ظبي أو مساويك إسْحِل[٧]

تضيء الظلام بالعشاء كأنها ... منارة مُمْسَى راهب متبتل

---

(١) أسيل: رقيق، صفة لموصوف محذوف هو الخد -وجرة: مرب للوحش بين مكة والبصرة. قال بعض الأعراب:

وفي الحيرة الغادين من بطن وجرة ... غزال أحم المقلتين ربيب

فلا تحسبي أن الغريب الذي نأى ... ولكن من تنأين عنه غريب

ومطفل: ذات طفل. يريد أن نظرتها فيها عطف وحنان.

(٢) الجيد: العنق الريم: الظبي -نصته: رفعته -ومعطل وعاطل: لا حلية فيه.

(٣) الفرع: الشعر المتن: الظهر -فاحم: شديد السواد -أثيث: غزير -متعثكل: ذو عثاكيل -وهي في النخيل كالعناقيد في الأعناب.

(٤) الغدائر: خصل الشعر -مستشزرات: مرتفعات -المدارى: الأمشاط.

(٥) الجديل: الوشاح -مخصر: دقيق -السقي على وزن غني نبات يسقى كثيرًا ويسمى البردي -المذلل: اللين.

(٦) لم تنتطق: لم تلبس المنطق أو النطاق، وهو شقة تلبسها المرأة وتشد وسطها فترسل الأعلى على الأسفل، وينجر الأسفل على الأرض -والتفضل: لبس الثوب الواحد -وعن، هنا، بمعنى بعد -أي لم تلبس المنطق بعد المفضل. يريد أنها أصيلة الترف لم تكتس بعد عرى.

(٧) تعطو: تتناول -رخص: لين ناعم - شثن: خشن - أساريع: جمع أسروع وهو دود أبيض أحمر الرأس تشبه به الأنامل المخضبة الأطراف -وظبي: اسم واد -والأسحل: شجر يستاك به.

إلى مثلهـــا يرنـــو الحليـــم صـــبابةً إذا مـــا اســـبكرَّت بـــين درع ومجـــول[١]

تـــسلت عمايـــات الرجـــال عـــن الـــصبا ولـــيس فـــؤادي عـــن هواهـــا بمنـــسل[٢]

ألا رُبَّ خـــصم فيـــك ألْـــوَى رددتـــهُ نـــصيح عـــلى تعذالـــه غـــير مؤتـــل[٣]

فعلى هذا المنهج جرى ابن أبي ربيعة في محاكاة امرئ القيس، ولكن أستاذنا الدكتور طه حسين يعكس القضية: فيقرر أن أمرأ القيس هو الذي حاكى ابن أبي ربيعة؛ إذ يفترض أن شعر امرئ القيس منحول، وضعه شاعر إسلامي تأثر بعمر بن أبي ربيعة فحاكاه، وأجاد المحاكاة والتقليد. وعنده أن هذا النحو من القصص الغرامي في الشعر هو فن عمر بن أبي ربيعة قد احتكره احتكارًا، ولم ينازعه فيه أحد، وأن من الغريب أن يسبق امرؤ القيس إلى هذا الفن، ويتخذ فيه هذا الأسلوب، ويُعرف عنه هذا النحو، ثم يأتي ابن أبي ربيعة فيقلده فيه ولا يشير أحد من النقاد إلى أن ابن أبي ربيعة قد تأثر بامرئ القيس، مع أنهم قد أشاروا إلى تأثير امرئ القيس في طائفة من الشعراء في أنحاء الوصف، وأنه يبعد أن يكون امرؤ القيس هو منشئ هذا الفن من الغزل الذي عاش عليه ابن أبي ربيعة، والذي كوَّن شخصية ابن أبي ربيعة الشعرية ولا يُعرف له ذلك[٤].

---

(١) اسكرت: طابت واعتدلت -والدرع القميص -والمجون على وزن منبر ثوب تلبسه الفتاة وتجول فيه قبل أن تخدر.

(٢) منسل: سال.

(٣) خصم ألوى: عسر يلتوي على خصمه -غير مؤتل: غير مقصر.

(٤) راجع ص٢٢٢ من الأدب الجاهلي.

وقد يُلاحظ أن ابن أبي ربيعة أذاع في شعراء عصره فكرة تَقَارُض المودة بين المحبين، وأظهر ما يكون ذلك في شعر العرجي[١] إذ يقول:

وما أنسَ ملأ شياء لا أنس موقفًا ... لنا ولها بالسفح دون ثبير[٢]

ولا قولها وَهنًا وقد بلَّ جيبها ... سوابقُ دمع لا يجفُّ غزير[٣]

أأنت الذي خَبَّرتَ أنك باكرٌ ... غداة غد أو رائح بهجير[٤]

فقلت يسيرٌ بعض شهر أغيبهُ ... وما بعض يوم غبته ببسير

أحين عصيت العاذلين إليكمُ ... ونازعت حبلي في هواكِ أميري

وباعدني فيكِ الأقاربُ كلهم ... وباح بما يخفي اللسان ضميري

وقلت لها قول امرئٍ شفَّه الهوى ... إليها ولو طال الزمان فقير

فما أنا إن شطت بك الدار أو نأتْ ... بي الدار عنكم فاعلمي بصبور

ولنرجع فنذكر أننا بحثنا طويلًا عن شاعر سَلَك مسلك عمر بن أبي ربيعة في مخاطبة النساء، فلم نجد من يقاربه غير بشار بن برد، الذي شهد آخر أيام بني أُمية

---

(١) العرجي: هو عبد الله بن عثمان بن عمرو بن عثمان بن عفان، وكان ينزل بعرج الطائف فنسب إليه.

(٢) ثبير: من جبال مكة.

(٣) الوهن: نحو من نصف الليل أو بعد ساعة منه.

(٤) يرى أستاذنا الدكتور طه حسين أنه لا يصح أن تقول: أنت الذي فعلت هذا؛ وإنما تقول: أنت الذي فعل هذا؛ فإن القرآن يقول: يا أيها الذين آمنوا، ولا يقول يا أيها الذين آمنتم. ونرى أنه لا مانع من أن تقول: أنت الذي فعلت هذا، بدليل قول العرجي هنا (أأنت الذي خبرت) وقول ابن الدمينة:

وأنت التي أخلفتني ما وعدتني ... وأشمت بي من كان فيك يلوم

وقول كثير:

وأنت التي حببت شغبًا إلى بدا ... إلي وأوطاني بلاد سواهما

وصدر دولة بني العباس، ففي شعر بشار قرب من منهج ابن أبي ربيعة في محاورة الغواني والتودد إلى المِلاح، وفيه كذلك تأنُّق في وصف الجوانب الحِسية من المرأة المجدولة الخلق، المشرقة الجبين. وهو الذي يقول:

وبيضاء يضحك ماء الشبا ... بِ في وجهها لسنك إذ تبتسم
رواء العذارى إذا زرنها ... أطفن بحوراءَ مثل الصنم
يَرُحْن فيمسَحْن أركانها ... كما يمسح الحجر المستلمِ

وفي هذا الشعر على يُسْره وسهولته نفحة من عبادة الجمال، وهو يذكرنا بقوله من كلمة ثانية:

تُلقَى بتسبيحة من حُسن ما خُلقت ... وتستفز حشا الرائي بأرعاد
كأنما صُوِّرت من ماء لُؤلؤةٍ ... فكل جارحةٍ وجه بمرصاد

وقوله من كلمة أخرى يتحدث فيها عن ليلة وصل:

ومُرتجَّة الأرداف مهضومة الحشا ... تمور بسحرٍ عينها وتدورُ
إذا نظرت صبَّتْ عليك صبابةً ... وكادت قلوب العالمين تطيرُ
خلوت بها لا يخلص الماء بيننا ... إلى الصبح دوني حاجب وستور

وذكر صاحب زهر الآداب أن بشارًا لما قال:

لا يؤيسنَّك من مخبأة ... قولٌ تغلَّظه وإن جرحا
عُسر النساء إلى مياسرة ... والصعب يمكن بعد ما جمحا

بلغ ذلك المهدي فغاظه، وقال: يحرِّض النساء على الفجور، ويسهِّل السبيل إليه! فقال له خاله يزيد بن منصور الحميري: يا أمير المؤمنين، قد فتن النساء بشعره، وأي امرأة لا تصبو إلى مثل قوله:

عجبت فطمة من نعتي لها ... هل يُجيد النعت مكفوف البصر؟
بنت عشر وثلاث قسِّمت ... بين غصن وكثيب وقمر
دُرَّةٌ بحرية مكنونة ... مازها التاجر من بين الدرر
أذرت الدمع وقالت ويلتي ... من ولوع الكف ركاب الخطر
أمتي بدِّد هذا لُعبي ... ووشاحي حله حتى انتشر
فدعيني معه يا أمتي ... علَّنا في خلوة نقضي الوطر
أقبلت في خلوة تضربها ... واعتراها كجنون مُستعر
بأبي والله ما أحسنه ... دمعُ عين غسل الكحل قطر
أيها النُّوام هُبُّوا ويحكم ... وسلوني اليوم ما طعم السهر

فأمره المهدي أن لا يتغزل، فقال أشعارًا في ذلك، منها هذه التائية:

يا منظرًا حسنًا رأيته ... من وجه جارية فديته
لمَعت إليَّ تسومني ... ثوب الشباب وقد طويته[1]
والله ربِّ محمدٍ ... ما إن غدرت ولا نويته
أمسكت عنك وربما ... عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبى ... وإذا أبى شيئًا أبيته
ويشوقني بيت الحبيـ ... ـب إذا غدوت وأين بيته
قام الخليفة دونهُ ... فصبرت عنه وما قليته
ونهاني الملك الهما ... مُ عن النسام فما عصيته
لا بل وفيت ولم أضع ... عهدًا ولا رأيًا رأيته

(١) لمعت إلي: أشارت.

وفي الحق أننا نجد في القصيدة الأولى شبهًا قويًّا بشعر عمر بن أبي ربيعة، وإنه ليحاكيه حتى في التغزل بنفسه والتحدث عن أسره لقلوب النساء. ولو بقي شعر بشار لاستطعنا التثبت مما نراه من التشابه بين شعر هذين الشاعرين، ولكن شعر بشار ضاع فلم يبق إلا الاعتماد على تلك الشواهد الضئيلة في تأييد ما ذهبنا إليه، وإن كنا على يقين من أن لهذا الرأي حظًّا من الصحة غير قليل.

والخلاصة أننا لا نجد شاعرًا بعد عمر بن أبي ربيعة وقف حياته وشعره على التشبيب بالنساء، وإن كنا لا ننكر أن كثيرًا من الشعراء نحوًا منحاه في القصص الغرامي، وإن لم يعرفوا بذلك، فإنا لا نشك في أن الأبيوردي حاكاه حين قال:

تنور سناها من بعيد ولا تُرى ... فليس على من آنس النار من بأس
ومن مُوقديها غادةٌ دونها الظُّبي ... تلوح بأيدي غِلمة غير أنكاس[1]
وكل رُديني كأن سنانه ... يعط رداء الليل عنهم بنبراس[2]
مهفهفةٌ غَرْثى الوشاحين دونها ... تحرش عُذَّال ورقبة حراس
يضيء لها وجهٌ يرق أديمهُ ... فما ضرَّها لو رقَّ لي قلبها القاسي
سموت لها والليل حارت نجومه ... على أُفق عارٍ بظل الدُّجى كاسي
فهبَّت كما ارتاع الغزال وأوجست ... من ابن أبيها خيفةً أي إيجاس
تشير إلى مُهري جِذَار صهيلهِ ... وتستكتم الأرض الخُطى خشية الناس
فقلت لها لا تفرقي وتشبثي ... بنَهَّاس أقران وسنَّاع أخياس[3]

---

(١) الأنكاس جمع نكس -بالكسر- وهو الضعيف.

(٢) الرديني: الرمح، نسبة إلى ردينة، وهو رجل كان يثقف السلاح -يعط رداء الليل: يشقه. وقرئ (فلما رأى قميصه عط من دبر) أي قد -والنبراس: المصباح.

(٣) النهس في الأصل أخذ اللحم بمقدم الأسنان -ومن أسماء الأسد النهاس -والأخياس جمع خيس -بالكسر- وهو موضع الأسد.

تـــرد يديـــه عـــن وشـــاحك عفـــةٌ ... وعـــرض صـــقيل لا يُـــزنُّ بأدنـــاس[١]

وطوَّقتهـــا يُمنـــى يـــديَّ وصـــارمي ... بيُـــسراي فارتاحـــت قلـــيلًا لا ينـــاسي

وذقـــت عفـــا عنَّـــا الآلـــة وعـــنكمُ ... جَنَـى ريقـةٍ تلهـى أخـاكم عـن الكـاس[٢]

فلـــما اســـتطال الفجـــر مـــال بعطفهـــا ... وداعـــي كـــما هـــز الـــصبا قُـــضُب الآس

ويمكن الحكم بأن أبا نواس جاري ابن أبي ربيعة في النسيب، لولا أنه غير مجرى الحديث، فنقله من النساء إلى الغلمان، وجاري أبا نواس فريق من شعراء الأندلس، أشهرهم ابن خفاجة الذي يقول في وصف ليلة قضاها بين ضلال الهوى وجنون الصهباء.

وليـــلَ تعاطينـــا المـــدام وبيتنـــا ... حـــديثٌ كـــما هـــبَّ النـــسيم عـــلى الـــورد

نُعـــاوده والكـــأس يعبـــقُ نفحـــهُ ... وأطيـــب منـــه مـــا نعيـــد ومـــا نبـــدي

ونقـــلى أقـــاح الثغـــر أو سوســـن الطـــلي ... ونرجـــسة الأجفـــان أو وردة الخـــد[٣]

إلى أن سرت في جـــسمه الكـــأس والكـــرى ... ومـــالا بعطفيـــه فـــمال عـــلى عـــضدي

فأقبلـــت أســـتهدي لمـــا بـــين أضـــلعي ... مـــن الحـــر مـــا بـــين الـــضلوع مـــن الـــبرد

وعاينتـــه قـــد سُـــلَّ مـــن وشي بُـــرده ... فعاينـــت منـــه الـــسيف سُـــلَّ مـــن الغمـــد

لِيـــان مجـــسٌّ واســـتقامة قامـــةٍ ... وهـــزة أعطـــاف ورونـــق إفرنـــد

أغـــازل منـــه الغـــصن في مغـــرس النقـــا ... وألـــثم وجـــه الـــشمس في مطلـــع الـــسعد

فـــإن لم يكنهـــا أو تكنـــه فإنـــه ... أخوهـــا كـــما قُـــدَّ الـــشراك مـــن الجلـــد

تـــسافر كلتـــا راحتـــي بجـــسمه ... فطـــورًا إلى خـــصر وطـــورًا إلى نهـــد

---

(١) لا يزن: لا يتهم.

(٢) تقبل الله دعاء الشاعر وعفا عنا وعنه أنه سميع مجيب!

(٣) النقل -بالفتح- ما يتناول على مائدة الشراب.

فتهبط من كشحيه كفّي تهامة وتصعد من نهديه أخرى إلى نجد